الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

بمناسبة يوم المرأة العمانيّة
17 أكتوبر

المرأة المؤسِّسة
شراكة حضاريّة في بناء الأمة

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY

unicef

UNESCO
United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization

GenEx
Generational Education Exchange

تمكين TAMKEEN

UNIVERSITY OF VICTORIA LONDON - UK

AMIEF
American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

في لحظات التأسيس الكبرى، حين تُرسم ملامح الأمم وتُوضع اللبنات الأولى للحضارات، تتجلّى الحقائق في أنصع صورها، ففي تلك اللحظة التاريخيّة الفارقة بمكة المكرمة، حين التقى الإيمان بالعزيمة في بيعة العقبة الثانية، كان للمرأة حضورها الفاعل والمؤسّس، لا كضيف عابر أو شاهد صامت، بل كشريك حقيقيّ في صناعة التاريخ ورسم مستقبل أمة....

فمن بين خمسة وسبعين مؤمناً ومؤمنة من الأنصار الذين بايعوا النبيّ ﷺ في تلك الليلة المباركة، كانت امرأتان تقفان جنباً إلى جنب مع إخوانهن الرجالح أم عمارة نسيبة بنت كعب من بني مازن النجاري، وأم منيع أسماء بنت عمرو من بني سلمة، ولم يكن حضورهما مجرّد رقم في سجل التاريخ، بل كان إعلاناً صريحاً عن مبدأ جوهريّ مفاده أنّ بناء الحضارة الإسلاميّة مسؤوليّة مشتركة، وأنّ حمل الأمانة لا يفرّق بين ذكر وأنثى حين يتعلّق الأمر بنصرة الحقّ والدّفاع عن العقيدة...

فحين نتأمل هذا المشهد التاريخيّ، ندرك أنّ الإسلام لم يمنح المرأة حقّ المشاركة كمنّة أو تفضّل، بل أقرّ لها عضويّة أصيلة في العقد الاجتماعي الأوّل للأمة، فالبيعة كانت تعاقداً سياسيّاً واجتماعيّاً وعقديّاً على نصرة الإسلام والدّفاع عنه بالنفس والمال...

فهذا المفهوم الرّاقي للمواطنة يضع المرأة في موقع الشريك المؤسّس لا التّابع، وهو يعني أنّ صوتها في القرارات المصيرية كان حاضراً، وأنّ التزامها بالعهد كان ملزماً، وأنّ مسؤوليّتها عن مستقبل الأمة كانت كاملة غير منقوصة، وفي هذا السّياق، يتجلّى قول الحقّ تبارك وتعالى:﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: 71]، فالولاية هنا تعني التّعاون والنّصرة والمشاركة الفعلية في بناء المجتمع وإصلاحه....

فواحد من أعظم الانحرافات الفكريّة التي أصابت الفهم الإسلاميّ عبر التاريخ هو حصر دور المرأة في نطاق البيت والأسرة فقط، فليس بالخافي أنّ رعاية الأسرة وتربية الأجيال مسؤولية جليلة وأساسية، ولكنّ الخطأ

الجسيم هو اعتبار هذا الدور حدّاً أقصى لا يجوز تجاوزه، بدلاً من اعتباره أرضية صلبة تنطلق منها المرأة نحو آفاق أوسع من العطاء....

فقد جاءت بيعة العقبة لتُثبت أنّ الإسلام رأى في المرأة طاقة بناء حضاريّ شاملة، فهي المربّية في بيتها، والمجاهدة في ميدانها، والمبايعة في قرارها، والناصرة في موقفها، وهذا التصوّر المتكامل يرفض التجزئة المصطنعة بين "الخاصّ" و"العامّ"، ويؤكّد أنّ المسؤوليّة الإيمانيّة تشمل مجالات الحياة بأكملها، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ... أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 35]، فهنا ظهرت المساواة في الخطاب الإلهيّ، وكان التّكرار مقصوداً للصيغتين الذكوريّة والأنثويّة، ليؤكّد وحدة المسؤوليّة ووحدة الجزاء....

فلم تكن بيعة أم عمارة مجرّد كلمات تُقال، بل كانت عهداً تُرجم إلى أفعال خالدة، فقد شهدت معركة أحد ودافعت عن النبيّ ﷺ بسيفها وقوسها حين تفرّق عنه كثير من المقاتلين، وقد أثر عنه ﷺ قوله: "ما التفت يميناً ولا شمالاً يوم أحد إلاّ وأراها تقاتل دوني"...

وهذا النموذج الحي يكشف عن حقيقة جوهرية بأن الإسلام لا يعرف التمكين النظري المنفصل عن الواقع، إنما يؤمن بالممارسة الفعلية والمشاركة الحقيقيّة، فالمرأة لم تُعطَ حقّ المشاركة ثم تُحجب عن ميادينها، بل منحت الحق ومُكّنت من أدواته وسُدّدت في مواقفه....

وهنا قد استوجب التنويه إلى وجود فرق شاسع بين منظومتين فكريتين في التّعامل مع دور المرأة؛

المنظومة الأولى ترى مشاركة المرأة منّة من الرجل أو من المجتمع، ويْ كأنّ الأصل هو الحجب والاستثناء لا المشاركة، فهذا الفهم يجعل كلّ خطوة للمرأة نحو الفضاء العام موضع امتنان وشكر، وكأنّها تتجاوز حدّها الطبيعيّ، والمنظومة الثانية التي تمثّلت بالمنظومة الإسلامية الأصيلة، ترى مشاركة المرأة حقاً أصيلاً ومسؤوليّة إيمانيّة، والأصل هو الشراكة الكاملة..

وقد كانت بيعة العقبة تنتصر للتصوّر الثاني بوضوح لا لبس فيه، فحضور المرأتين لم يكن استثناءً جميلاً أو لفتة تقديميّة من النبيّ ﷺ، إنّما كان تطبيقاً طبيعياً للمنظومة الإسلامية التي لا تفرق بين المؤمنين والمؤمنات في أصل التكليف والمسؤولية....

ونحن حين نروي لأبنائنا وبناتنا قصة بيعة العقبة، فإنّنا لا نسرد تاريخاً بارداً، إنّما نقوم نزرع منظومة قيميّة تشكّل وعيهم بأنفسهم وبدورهم في الحياة، فنوّجه خطابنا للفتيات بقولنا:

"هذه القصة لكنّ لتثبت لكنّ بأنّكنّ لستنّ على هامش التاريخ، بل في قلبه.، ودوركنّ ليس ثانوياً، إنّما مؤسّس، وصوتكنّ ليس مكملاً، إنّما ضروريٌّ"...

وللفتية نقول لهم:

"شريكتكم في الحياة ليست تابعة، بل مشاركة، وليست عبئاً تحمله، بل طاقة تتكامل معها، وليست ضعفاً تحميه، بل قوة تستعين بها."...

وللمجتمع ككلّ نقول لهم:

"لن تنهض الأمم بنصف طاقتها، فحين تُعطّل نصف المجتمع، تُشلّ الأمة بأكملها."...

ورغم هذه المكانة العظيمة لدور المرأة، إلاّ أنّ هنالك لغط كبير وفهم خاطئ يمسّ مفهوم دورها، ويحمل في طيّاته انحرافات خطيرة...

ويتمثّل الانحراف الأوّل في التهميش باسم الدين، إذ تُحجب المرأة عن المشاركة الفاعلة في المجتمع بدعوى الحفاظ عليها أو صيانة كرامتها، مع أنّ الإسلام الحقيقيّ أعطاها هذا الدور منذ اللحظة الأولى، وهذا الانحراف يُخفي خلف ستار ديني تصوّرات قبليّة وثقافيّة موروثة....

والانحراف الثاني هو التّمييع باسم التحرر، إذ يُطالَب بإلغاء أيّة فوارق بين الجنسين، وإلغاء كلّ خصوصية، والقفز فوق الفطرة والحكمة الإلهيّة، فهذا الانحراف يُخفي خلف شعارات براقة تدميراً للأسرة وتفكيكاً للمجتمع...

وأمام ذلك وهذا فقد جاء الموقف الإسلامي الوسطي ليرفض الانحرافين معاً، فهو يؤكّد على المساواة في الكرامة الإنسانية والمسؤولية الإيمانية، مع إقرار التمايز في بعض الأدوار بناءً على حكمة إلهيّة وفطرة سليمة، فالمرأة شريكة كاملة، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ الشراكة لا تعني التطابق إنّما التكامل، فقد قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ

الذَّكَرُ كَالأُنثَى﴾ [آل عمران: 36]، فهذا إقرار بالتمايز الذي هو مصدر ثراء لا نقص، وقال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 228]، وهذا إقرار بالعدل والتوازن في الحقوق والواجبات....

واليوم في عصرنا الحاضر، تتصارع التيارات الفكريّة حول قضية المرأة، وتأتي بيعة العقبة بدروس عملية واضحة منها.. ضرورة مشاركة المرأة في القرار السياسي، وإمكانية تولّيها لمواقع قياديّة ضمن ضوابط تحفظ المصالح وتدرأ المفاسد، والتّأكيد على أنّ دور المرأة الفاعل كشريكة في النهوض لن يتحقّق إلاّ بالتعليم والتمكين لا بالتهميش والتجهيل، فالتعليم حقّ منطلق من باب الضرورة الإنسانيّة والدينيّة، وأخيراً هناك العديد من الميادين التي تستطيع المرأة العمل بها من تطوع خيريّ وتعليم وأمر بمعرفو ونهي عن منكر، ومن خلالها تستطيع التأثير في المجتمع بإيجابيّة...

وبعد،

فإنّنا حين نستعيد ذاكرة بيعة العقبة، فإنّنا لا نستحضرها حنيناً للماضي، إنّما نستلهمها رؤية للمستقبل، فالتاريخ ليس سجناً نعيش فيه، بل مرآة نرى فيها حقيقتنا، ومنارة نهتدي بها في طريقنا، فالإسلام قد منح المرأة مكانتها منذ أربعة عشر قرناً، لا تفضّلاً ولا منّة، إنّما إقرار بحقيقة فطرية وإعلان لمنظومة قيمية....

واليوم، حين تتصارع الشعارات يبقى النموذج الإسلاميّ وسطاً عادلاً يحفظ للمرأة كرامتها، ويحترم خصوصيتها، ويمكّنها من دورها، ولا يُحمّلها ما لا تطيق، ولا يحرمها ما تستحق..

فلم تكن المرأة المؤسِّسة في بيعة العقبة مجرّد رمز تاريخي، إنّما تأكيد حيّ لمقولة أنّ المرأة شاركت في تأسيس الدولة الإسلاميّة، ودليلٌ قويٌّ على المكانة الرفيعة التي منحها الإسلام للمرأة، ونموذج حاضر يتحدّانا أنْ نكون أوفياء لتلك الرسالة، وأنْ نبني مجتمعات تحترم المرأة كشريك كامل، وأنْ نربي أجيالاً تؤمن بأنّ النهضة مسؤوليّة مشتركة، وأنّ الحضارة لا تُبنى بنصف المجتمع، ففي قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ [آل عمران: 195]، تأكيد بأنّ الجزاء الإلهيّ لا يفرّق ذكراً من أنثى، والمسؤوليّة الإنسانيّة لا تتجزأ..فالقول الفصل ها هنا بأنّ المرأة ليست خلف الرجل، ولا أمامه، بل بجانبه، تقاتل معه، تبني معه، تنهض معه....

وفي السابع عشر من أكتوبر من كلّ عام، حين نحتفي بيوم المرأة العُمانيّة، فإنّنا لا نحتفل بمناسبة عابرة، بل نُجدّد العهد مع إرث حضاريّ عميق الجذور، يمتدّ من بيعة العقبة إلى نهضة عُمان الحديثة، حيث كانت المرأة العُمانيّة - وما تزال - شريكاً أصيلاً للرجل في كلّ مراحل البناء والتطوّر، وفي شراكة تحمل في طياتها دعوة لكلّ امرأة بأنْ تفعّل دورها بالاستناد إلى أسس النهج الإسلاميّ، ومبادئ القرآن الكريم والسنة النبوية التي كرّمت المرأة في كافة أطوار حياتها، مع أخذ الحيطة والحذر من أنْ تقع رهينة لما تبثّه مكينة الإعلام الغربيّ من سمّ في العسل باسم الحقوق والحريّات والمساواة والتمكين، بشكل يتنافى وطبيعة المرأة، فتجد نفسها قد غيّبت دورها الأساسيّ في التربية والرعاية وزرع القيم والأخلاق في نفوس أبنائها، وتحوّلت نحو مزاحمة الرجال في ميادين ليست في الأصل لها، خروجاً بذلك عن فطرتها التي فطرها اللّٰه عليها...

فقد أثبتت المرأة العُمانيّة عبر التاريخ أنّها جديرة بالثقة والمسؤوليّة، فهي التي حملت راية العلم في القرى النائية معلّمةً وطبيبةً، وهي التي شاركت في صنع القرار في المجالس التشريعيّة والمناصب القياديّة، وهي التي أثبتت حضورها المتميّز في الميادين كافّة، من التعليم إلى الصحّة، ومن الاقتصاد إلى الدبلوماسيّة، ومن الفنون إلى العلوم...

فيوم المرأة العُمانيّة ليس احتفاءً بالماضي فحسب، بل هو تأكيد على الحاضر ورؤية للمستقبل، مستقبل تواصل فيه المرأة العُمانيّة مسيرتها كشريك حقيقيّ في بناء وطن يتّسع للجميع، ليبقى بنسائه نموذجاً حضارياً يُحتذى في تكريم المرأة وتمكينها من منطلق الضوابط الإسلاميّة...

فتحيّة إجلال وتقدير لكلّ امرأة عُمانيّة تحترم خصوصيّتها وحدودها التي رسمها الإسلام لها، وتحمل على عاتقها أمانة البناء والنهضة، وتُسهم بصدق وإخلاص في صناعة حاضر مشرق ومستقبل واعد لهذا الوطن الغالي.....